



"اليوبيل" الأسود والعجز العربي "والمئوى" لن يأتي إلا إذا خرج العرب تماما من التاريخ د. رءوف عباس

الأربعاء، 12 مايو 1998

قرر لنا أن نكون أبناء ذلك الجيل الذي وعى الدنيا مع نكبة فلسطين عام 1948 وحمل منذ الطفولة هما ثقيلًا تنوء بحمله الجبال ، وشغله أمر الخلاص من الكابوس الصهيوني وتفتحت آفاقه مع علو مد حركة القومية العربية في الخمسينيات والستينات وانتعشت آماله بقرب يوم الخلاص ، فإذا بمأساة يونيو 1967 تعود بجبلنا إلى نقطة البداية السوداء ، تضخم الكيان الصهيوني تضخمًا سرطانيًا ليلتلع ماتبقى من فلسطين ويضيف إليها سيناء والجولان ، طالبنا بحرب تحرير شعبية على النمط الفيتنامي دون جدوى فالنظام الذي أعطته الأمة تاييدا غير مشروط كان لا يؤمن بإعطاء الجماهير دورا فعالا في المعركة ضد التوسع الإمبريالي الصهيوني .

ورغم ذلك تحملت الجماهير بصبر جميل أعباء إعادة بناء القوات المسلحة وتضحيات حرب الاستنزاف ، حتى جاءت حرب أكتوبر 1973 التي حطمت أسطورة العدو الصهيوني الذي لا يقهر وأعدت للعرب الثقة بالنفس بعد استرداد الكرامة ولكن تلهف السادات على فتح صفحة جديدة في العلاقة مع الغرب ، والارتقاء في أحضان أمريكا ظنا منه أن ذلك كفيل بحل الصراع العربي _ الصهيوني لمصلحة العرب ، بدد الكثير مما تحقق بدماء وتضحيات جنودنا البواسل في حرب الاستنزاف وحرب أكتوبر ومزق الصف العربي الذي كان واهنا أصلا .

جيلنا التعس جيل المعاناة ، عاش ذلك كله أدمى قلبه اقتتال العرب مع بعضهم البعض ، والعدو يحصد ثمار الصلح مع مصر ، غزوا للبنان ، وتصفية للمقاومة الفلسطينية ، وتهويدا للأرض المحتلة ، وبلغ الاقتتال العربي ذروته في حرب الكويت أو حرب الخليج الثانية ، وبلغت المهزلة ذروتها عندما رأينا السلاح العربي مشهرا في الوجوه العربية ، يريق دماء عربية ، ورأينا أمريكا وحلفاءها يحولون العرب إلى فئران تجارب لأسلحتهم المتطورة التي مولتها الأموال العربية عشنا لنشهد تمزق حركة المقاومة الفلسطينية ، وسعى قيادتها إلى نيل بعض فتات الأرض لتقام عليها " سلطة فلسطينية " بشروط العدو الصهيوني ، فتصفي الانتفاضة ، وتطارد المعارضة بنفس أسلوب وممارسات العدو الصهيوني ، وتقلص أمل تحرير التراب الفلسطيني إلى نسب مئوية يخجل القلم من ذكرها ، دون استيعاب سلبيات درس المصالحة ، ومهزلة السلام المزعوم.

نصف القرن مضى وانقضت معه أحلى سنوات عمر هذا الجيل الذي أفقدته مرارة الانكسار الإحساس بحلاوة سنوات الطفولة أو الشباب أو حتى الكهولة ، وقدر له أن يشهد في شيخوخته احتفال الكيان الصهيوني بـ " اليوبيل " الأسود ، لتغص حلوقنا بعلقم العجز وتتركز المرارة في حلوقنا عندما نعلم أن الاحتفال تم على أرض مصر أيضا بتنظيم من سفارة الكيان الصهيوني ، وقيل إن الحفل غص بالضيوف العرب مسئولين ورجال أعمال !!

إننا نعيش الآن " عصر النطاعة العربية " ، ويبدو أننا نستأثر بها وحدنا ، فالاحتفالات الصهيونية تتردد أصدائها في أركان الدنيا الأربعة ونحن نتفرج كالبلهاء ربما دبح بعضنا المقالات إبراء للذمة ، فتأتي الكلمات أنات جراح مكتومة والعبارات كنواح الأرامل ، نرى على صفحات جريدة كبرى صورة طفلة فلسطينية تحمل لوحة كتب عليها " خمسون عاما من الدماء " تسير في مظاهرة صغيرة الحجم تحتج على احتفالات اليوبيل الأسود ، وكأنها صورة طفلة من أمة أخرى ، من كمبوديا ، أو حتى بلاد واق الواق ، والجريدة الكبرى مطبوعة بألوان زاهية تعبيرًا كاذبا عن دخولنا عصرًا جديدا ، نعيش على هامشه عيشة العاجزين .

ومن عجب أن تجرى احتفالات اليوبيل الأسود ، دون أن يسمع العالم لنا صوت احتجاج ، فلا نرى مسيرات شعبية في عواصم عربية ، ولا نسمع صوتا لجامعة الدول العربية ، ولا نرى أثرا للحظة مواجهة إعلامية مدروسة في الفضائيات العربية ، ولا حتى في الأرضيات العربية ، فالأمر لا يعني أحدا ! وتبلغ النطاعة ذروتها عندما تجرى بعض الأقاليم العربية بوصف اليوبيل الأسود بـ " العيد الذهبي للاستقلال " وتردد بعض الإذاعات العربية نفس المصطلح بقدر كبير من الغباء .

ويديج البعض المقالات التي تجعل القارئ يتيه إعجابا بالصهيونية ، فقد خططت وحددت الهدف والمدة اللازمة لتحقيقه وسعت لتحويل الحلم إلى حقيقة واستثمرت الأوضاع الدولية والعجز العربي لصالحها ، وكان صاحب المقال يريد أن يقول للقارئ هؤلاء الناس يستحقون كل خير !!

وتحفل الساحة بالعديد من الأحزاب والمنظمات غير الحكومية التي تتشدد بالدفاع عن حقوق الإنسان ، ولكننا لم نسمع عن تنظيم أى عمل جماهيري أو إعلامي يعبر عن معاناة الشعب الفلسطيني وتشريده ، واقتلعه من أرضه لصالح العنصرية الصهيونية والإمبريالية العالمية .

أصبح بيننا جماعة من المنتفعين بالعجز العربي والتوسع الصهيوني ، يروجون لوهم السلام ، ويبيعون لنا ما يجترونه من أفكار العدو " السلام قادم ، يجر معه الرخاء ، سوق الشرق الأوسط كفيلة باستيعات الكيان الصهيوني وإحلال التعاون محل الصراع " .

وعبثا حاولنا أن نقنعهم بأن تلك أحلام الهيمنة الإسرائيلية ، وأن المشروع صهيوني قديم ، وأنهم يبيعون لنا الوهم . وعندما جاءت ممارسات لتؤكد بعض ما أثرناه رفعوا في وجوهنا شعار " هجوم السلام " واتهمونا بأننا نزايد على الفلسطينيين الذين جنحوا إلى التفاوض ، وخلعوا ثيابهم قطعة قطعة فلماذا نتباكي نحن على فلسطين؟! !!

هذه جميعا تقاسيم مختلفة على لحن العجز العربي تعبر عن اتجاه له من يحركونه ، يرمى إلى التملص من القضية الفلسطينية ، وترك الفلسطينيين وحدهم لمواجهة الهيمنة الصهيونية ، وهو اتجاه قاصر ، مصاب بالعشى ، لأن الهدف الاستراتيجي للصهيونية هو الهيمنة على المنطقة كلها ، ولعب دور القوة الإقليمية ، الذي كانت مصر تلعبه دائما على مر التاريخ ، وتحاول الآن جاهدة أن تحتفظ ببقاياها ، من منطلق الفهم الكامل لجوهر القضية الفلسطينية باعتبارها قضية أمن قومي مصري .

إن إحتدام الأزمات يولد دائما العوامل التي تفتح الطريق أمام الحل ، وإذا كنا نعيش أتعمس مراحل الانكسار العربي الناتج عن التمزق والعجز ، وغياب العمل القومي ، فقد شهدت أمتنا على مر تاريخنا الطويل مراحل مشابهة ما لبثت أن استردت بعدها عافيتها ونفضت عنها غبار الانكسار ، أقول هذا عن خبرة عميقة بتاريخ هذه الأمة ، وعن دراية تامة بالقوى الكامنة فيها ، وعن استقراء لمعطيات الواقع المعاصر وإن غلبت عليها السلبية ، لأن وجود الكيان الصهيوني يتناقى مع حركة التاريخ ، ومن عجب أن العدو يدرك ذلك تماما ، وينسج سياساته واضعا هذه الحقيقة فى الاعتبار ، أما الأصدقاء فيغطون فى سبات عميق ، فلن يسمح التاريخ ببوييل منوى أسود للكيان العنصرى الصهيونى إلا إذا خرج العرب تماما من التاريخ.